

وبينما كنا ننتظر ، وبينما كان أمثال عدنان وحسين وتوفيق يقذفون بأنفسهم على صفوف من السيوف السياسية والاجتماعية ، كانت الحدآت والغربان تطير أسراباً ناعقة فوق غياض النخيل التي تعمر أرضاً تتجدد ببطاء يوماً بعد يوم .

هكذا ، تصبح الخبرة الفلسطينية عامل تغيير هادئ وبطيء . لذلك يتراجع الشعر امام الواقع ، يخفت صوت البحث التشكيلي ليرتفع مكانه صوت الحوار العقلاني . وتكتشف الرواية نفسها أرض ممارسة ايديولوجية ، لكنها هنا ، لا تسمح لجميع التناقضات بالبروز ، لانها خاضعة لمنطق مسبق محكم الاغلاق .

عندما نعيد قراءة جبرا نكتشف بعده عن خط الرواية الفلسطينية الملتزمة (كنفاني ، حبيبي) ، فهو يحمل التزاماً من نوع خاص . لذلك يغلب عنده الطابع الثقافي على كل شبكة الممارسة النضالية ، ويخفت صوت اللاجئين امام أصوات الطبقات القديمة .

السلوك الاجتماعي والاخلاقي . أي ان واقعية جبرا لا تصل الى نهايتها لتكشف لنا علاقة هذه الطبقة ببقية الطبقات الاجتماعية الا تلميحاً وبشكل سريع . مما يؤكد الفرضية الاساسية التي ذهبت اليها في اعتبار آلية التغيير عند جبرا آلية ثقافية بشكل اساسي . وهذا ما يعود فيؤكد لنا الدكتور فالج في انتحاره على ظهر « السفينة » . هكذا تتلخص الواقعية بالانكار والمواقف . ويخفت صوت الفجوة الفلسطينية في عملية اندماج سريعة بالتغيير الاجتماعي .

٢ - الشخصيات المتعددة النوازع ، والتي نكتشف انها تنتمي في آخر تحليل الى نفس الطبقة الاجتماعية . لكنها تنفصل عنها في مسار تدمير الذات ، داخل تفسخ شامل . نكتشف قدرة الروائي على تحريك عدد كبير من الشخصيات في توازن مذهل مع تطور احداث الرواية .

في خاتمة الرواية ، يرتفع صوت جميل الفران ملخصاً : « خلال الاشهر الطويلة التي نلت ،

البحث عن

زمن جديد

بامتداد كاسح على جسد الآخرين . « ها هم تادمون من الجبال والسهول زحفاً بانجاه المدن . في عيونهم غضب ، وعلى جباههم فيار ومجد منتظر . في الريح تخفق راياتهم وأصواتهم الجلييلة تملأ سمع العالم ... مباركة الفقراء والرعاة ، والنبوذيين والحفاة ، وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فيموا شطره فجر ذلك اليوم المدهش » . وتنتهي في لحظة شعرية كئاسك ، حيث ينحل كل شيء في زمن الهزيمة : « حزيناً وعميقاً أتاني صوت صمت الجرح :

للحزن وقت

وللرعد وقت » .

وبين هذين الحدين ، تمتد اللغة الشعرية بشكل دائري ، لتقوم بالتقاط لحظة الحزن كاملة في علاقات مجموعة من المقتنين ، يوحدتهم زمن موحش ، يمتد على اجسادهم ، يخترقها ، ويجعل للفشل

يقدم حيدر حيدر في زمنه الموحش ، حالة زمنية جديدة في تركيب الرواية العربية . فهو لا ينطلق من الذات ليتوقف عندها ، او ليجعلها محورا ترجسيا للعلاقة مع الآخرين ، بل يمد الذات على مساحة شاسعة من العلاقات والخيبات ، حيث تصبح الانا ، مكاناً نسمع في داخله صوت ارتطام العالم بالموت . شبكة من العلاقات تبدأ بالانسا (الراوي) وتمتد لتشمل منى وميسالينا ، امينة ، سامر ، وائل حتى نصل الى لحظة الانفجار مع صوت مناحيم بيغن الذي يرتفع ليجرق اوصالنا الاجتماعية ، لتصل في النهاية الى مراثي ارميسا ومراثي الزمن العربي .

الشعر والحدث الروائي

تبدأ الرواية بالشعر ، صراخ يصل لحظة الموت

* حيدر حيدر : الزمن الموحش ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣/١٢/١ .